

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ: ١٥ مايو ١٩٩٢

هل البوسنة خارج النظام العالمي



بقلم

نبيل هادي

من البوسنة انطلقت شرارة الحرب العالمية الأولى، التي من رحمها خرجت فكرة اقامة النظام العالمي القديم، وفي البوسنة حدث الانفجار الذي عدا شاهداً على انكسار النظام العالمي الجديد، وفي الحالتين كانت اصابع الحروب هناك، وظلت سيرايفو العاصمة هي المسرح الذي تتابع عليه تلك الاحداث
عندما رار ولي العهد النمساوي فرانسوا فرديناند مع خطيبته مدينة سيرايفو عاصمة البوسنة في سنة ١٩١٤، وعن له ان يتحول في شوارع العاصمة التي كانت اذاك ما زالت محتفظة بطابعها الاسلامي المميز، فانه لم يهتأ بحولته، حيث لاحقه شاب بوسني صربي الاصل - اسمه جافريلو برسيبي - وقتله، الامر الذي ادى الى اعلان النمسا الحرب على صربيا، وكان الحادث هو الشرارة التي بها بدأت الحرب الأولى على النحو الذي يعرفه الجميع، وأدت مأساة الحرب التي خيمت ظلماً على أوروبا حينذاك، الى بروز الحاجة الى اقامة - عصبة الأمم -، وطلورت - العصبة - بعد الحرب العالمية الثانية الى صيغة الأمم المتحدة الراهنة

المأساة التي تعيشها البوسنة الآن اغرقتها في الدماء حقاً، ونصبت في مدنها وقرىها المذابح التي تتناقل اخبارها مختلف التقارير الصحفية في الغرب والشرق، واصابت الأمة الاسلامية قبل - الضمير العالمي - بالفزع والهلع، ذلك كله صحيح، لكن من الصحيح ايضاً ان نقرر بأن ما يسمى بالنظام العالمي الجديد هو في مقدمة صحايا تلك المأساة، التي اصبحت اهم تحد للارادة الدولية برز حتى الآن، بعد انتهاء عصر الحرب الباردة.

لقد تلقينا بشارات النظام الجديد قبل حرب الخليج وبعدها، على لسان الرئيس الامريكي جورج بوش، الذي دأب على اطلاق التصريحات الموحية بأن عالم ما بعد الحرب الباردة سيختلف جذرياً عن سابقه، بحيث يصبح اكثر سماحة واعنى غامساً واشد التزاماً بقيم الحرية والديمقراطية والانسانية، ولم يكن بوش وحده هو المنشر لذلك العالم الجديد، وانما كان ولا يزال يقود فريقاً من الخبراء، ومهندسي السياسة الذين ما انفكوا يبثون رسالهم على الموجة ذاتها، ولم يكن البروفيسور بوكوياما صاحب كتاب - نهاية التاريخ - بعيداً عن تلك الاجواء.

ورغم اختلاف الاجتهادات حول معالم ذلك النظام المرتقب، الذي لم يتوقف التحلل والتعط في صده حتى الآن، فإن الخطاب الامريكي على الأقل يذهب الى ان النظام الجديد يقوم على مجموعة من الركائز هي:

- التسوية السلمية للنزاعات الاقليمية.
- بحث روح جديدة في منظمة الأمم المتحدة.
- دعم التحولات الديمقراطية والدفاع عن حقوق الانسان.
- منع اسلحة الدمار الشامل وتطبيق استشارتها لحماية الاستقرار والسلام في

العالم

اصداء الاسترخاء الأمريكي:

ونكار الظن ان الولايات المتحدة . صاحبة الأطروحة . هي التي ستقود الدعوة الى تثبيت تلك الركائز والدفاع عنها في الساحة الدولية، وهو ما حدث بصورة سلبية خلال العامين الماضيين، حيث أحرز بعض التقدم في تسوية نزاعات اقتضية، مثل ناميبيا وأنجولا وجنوب افريقيا والسلفادور وأفغانستان، وبدأت مفاوضات السلام في الشرق الأوسط (التي لا نستطيع ان ندعي بأنها حلت اياً من المشكلات المتعلقة بين العرب واسرائيل)، وهي خطوات ما كان لها ان تتم بغير الاتعاق المبرر الذي تم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (السابق) الذي وضعته خطوته الأولى في قمة «ريكيافيك» التي عقدت في خريف عام ١٩٨٦، وفي أعقابها تم انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان، والعينامية من كمبوديا، والكوبية من أنجولا، كما تخلت موسكو عن دعمها لحلفائها السابقين، من دول شرق أوروبا الى نيكاراغوا وأثيوبيا.

برز ذلك الدور الأمريكي في حرب الخليج، الذي قادته فيه واشنطن التحالف الدولي الذي تمكن من فرض تنفيذ قرارات مجلس الأمن بالقوة العسكرية على النحو الذي لا يزال حاضراً في أذهان الجميع، وكان للولايات المتحدة دورها أيضاً في حماية الأكراد من بطش النظام العراقي الحاكم، عن طريق إقامة المناطق العازلة التي أسنهم بصورة أو بأخرى، وهو الموقف الذي أثار جدلاً كبيراً في الأوساط الأساسية والقانونية حول حدود التدخل الدولي في شؤون الدول الأخرى والاعتداء على سيادتها عملياً، لأسباب إنسانية أو لرد العدوان أو صد المخاطر التي تهدد الأمن الأممي.

غير ان الحماس لتثبيت صورة النظام الجديد ما لبث ان شابه فتور يمكن رصد معالته في تزايد انشغال الولايات المتحدة بمشكلاتها الداخلية، الاقتصادية والاجتماعية، واستغراقها الراهن في انتخابات الرئاسة، وتعالى الأصوات الأمريكية التي أصبحت تطالب الرئيس بوش بسياسة «أمريكا أولاً» ولا تجد مسوغاً «لتورط» الولايات المتحدة في شؤون العالم الخارجي، خصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وتراجع الخطر أو التهديد الذي ظل يذوق واشنطن من جانب «السوفييت» طيلة العقود الأخيرة.

الاسترخاء الذي بدأ في أمريكا كانت له اصدائه في «حلف الأطلسي» وفي مجموعة السبع الكبار»، وهي الدول الصناعية التي تصور البعض أنها ستصبح حكومة بديلة للعالم، حيث بدأ ان الكل مشغول بقضاياها المباشرة، أوروبا تجمعها وتفرقها قضايا الوحدة الاقتصادية والسياسية، وألمانيا غارقة في محاولة استيعاب قسمها الشرقي، وفرنسا غائبة عن المسرح الدولي، ومنصرمة الى النظم المستعمراتها القديمة، واليابان تبحث عن دور جديد في الساحة العالمية يعبر عن وزنهما الاقتصادي المتعاظم، اما كندا فلا يكاد يشعر أحد بدور لها خارج حدود نطاقها التقليدي.

في الوقت ذاته، فقد بدأ ان دور الأمم المتحدة يتصائل في ظل تفرد الولايات المتحدة بمثل الفراغ الناشئ عن الانهيار السوفيتي. وكانت الأزمة المالية التي واجهتها المنظمة الدولية حديثاً بمثابة إعلان من نوع آخر عن ذلك التضاؤل، وظهر واضحاً ان الولايات المتحدة ودول العالم الأول لم تعد توجّه اهتماماً يذكر الى دول العالم الثالث، وهو ما كان أشد وضوحاً في القارة الأفريقية، التي غدت نهياً للمجاعات والحروب الأهلية، خصوصاً بعدما فقدت أهميتها الاستراتيجية مع نهاية الحرب الباردة، ولم يعد أحد بحاجة الى مواردها الخام التقليدية.

لم تظهر أية ملامح للنظام الجديد لا في مفاوضات «الجات» حول التجارة الدولية، ولا في وصفات صندوق النقد الدولي القاسية، التي اتسع استخدامها لتشمل مجموعة الدول العائدة الى حظيرة الرأسمالية بعد ان نزعّت عن نفسها رداً الاشتراكية.

لا دور للأمم المتحدة:

أكثر من ذلك، فقد كشفت وثيقة «البناتجون» التي بشرتها صحيفة «نيويورك تايمز» قبل شهرين، عن أن الشاغل الأمريكي الحقيقي للولايات المتحدة هو تثبيت نفوذها واحتكارها للصدارة والزعامة في عالم تهيمن عليه قوة عظمى واحدة، وقد وصفت صحيفة «التايمز» تلك الوثيقة بأنها تمثل أوصع رفض حتى الآن للقيادة الجماعية على المستوى الدولي، التي يعترض أنها الصاس الأساسي وربما الوحيد لاستقرار النظام العالمي الجديد.

يشير الانتباه في هذا السياق أن مجلة «تايم» نشرت في عدد أحيار لها عقلاً لمعلق كبير هو «ستروب تالبوت» ذكر فيه أنه شهد مناقشات في وزارة الدفاع الأمريكية، حضرها عدد من الجنرالات والمسؤولين عن التفكير العسكري للولايات

المتحدة، وقد دارت تلك المناقشات حول المخاطر التي تهدد العالم، وبؤر التوتر المسطرة، في الشرق الأوسط والقرن الأفريقي وجنوب شرق آسيا، وموقف الولايات المتحدة منها.

قال تالبوت أنه وجد هيئة الأركان الأمريكية تاركة كل الخيارات مفتوحة أمامها، فعند الضرورة، هم لا يمانعون في أن تقوم الولايات المتحدة بمفردها بأعمال معينة، مثلما فعلت في يوريبيا في بنما، وعندما كان الأمر مختلفاً، فإن رؤساء الأركان يحصلون أن تقوم الولايات المتحدة - على حد تعبيره - بدور «الشريف» الذي يقود مجموعة من الأوصار للوقوف أمام شخص مثل صدام حسين.

الذي لأخطه تالبوت خلال حواراته مع القيادات العسكرية الأمريكية، أنه ليس ثم ذكر للأمم المتحدة في الخطط الأمريكية الخاصة بالتحرك أو التدخل في المستقبل، وعندما أثار أحد السفراء السابقين هذه النقطة - وكان حاضراً للمناقشة - فإن بعض العسكريين أبدوا استعدادهم للاشتراك بوحدات أمريكية تحت علم الأمم المتحدة، إلا أن افتادهم الحماس لهذه الفكرة كان واضحاً!

محمل هذه الدلائل يشير بوضوح إلى أمرين:

● أولهما أن الأمل المعلقة على النظام الدولي وقيمه الجذابة التي حدثت كثيرين إلى التعامل بالمستقبل، كان مبالغاً فيها إلى حد كبير، ومن ثم فربما كان تعبير «النظام اللادولي» هو الأكثر دقة في وصف مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، وقد ذهب «جيم هوجلاند» في «الواشنطن بوست» إلى أن الوضع الراهن هو أقرب إلى «العوضى العالمية الجديدة» وليس إلى النظام العالمي الجديد.

● الأمر الثاني أن الولايات المتحدة معنية بطموحها وهيمنتها على مقدرات العالم بكثير من عنايتها برعاية نظام عالمي يقوم على التعاون الدولي، للدفاع عن قيم شريفة بداتها، وبطبيعة الحال فإن بوصلة «المصالح» تمثل حجر الزاوية في هذا الترح، وإن ثاب ذلك لا يمنع من تدخلها في حالات معينة لا تبدو فيها المصالح المناسبة واضحة، ولكن ذلك يظل محكوماً بحساباتها الخاصة التي تقتضيها مستلزمات الزعامة والقيادة وإثبات الحضور.

مذبحة أخرى في البوسنة:

ولئن كانت تلك هي الصورة التي أصبحت متواترة في العديد من الكتابات والتعليقات السياسية، إلا أن ما حدث في البوسنة يمثل تحولاً درامياً له أصداه الخفية على كل أطروحات النظام العالمي الجديد.

فالبوسنة جمهورية اعترف بها المجتمع الدولي، بعدما قررت أغلبية سكانها - بطريق الاستفتاء، الحر - أن تستقل مثلما استقلت غيرها من دول الاتحاد اليوغوسلافي المنهار، ولكنها تعرضت لاجتياح وعدوان من جمهورية الصرب، فشلت كل الأطراف في إيقافه أو تسوية مسيباته بالطرق السلمية.

وفي البوسنة وقعت المذابح التي لم تعد أبعادها خافية على أحد، وانما نقلتها الصور وكاميرات التلفزيون إلى مختلف أرجاء العالم، واقتترنت المذابح بعمليات تهجير وتسريد قدر صحاياها إلى الآن بحوالي ٦٠٠ ألف نسمة، كما اقتترنت بجهد متواصل لتدمير المنشآت ومسح القرى من على الخريطة، الأمر الذي يعد انتهاكاً صارخاً وفاحشاً لكل بديهيات حقوق الإنسان.

إزاء ذلك كله، فإن الأمم المتحدة ظلت عاجزة عن أن تؤدي أي دور فاعل، سواء في فرض الالتزام بوقف إطلاق النار، أو في وقف المذابح وعمليات التهجير، بل أن مراقبيها الموجودين في سيرايفو انسحبوا إلى خارج البوسنة حرصاً على حياتهم؛ فضلاً عن ذلك، فإن ما تمارسه جمهورية الصرب يعد تهديداً حقيقياً للأمن الأنليمي، ذلك أن ابتلاعها للبوسنة هو مقدمة طبيعية لحرب واقعة لا محالة بين الصرب والكروات، ثم أن ما يمارسه الصرب من قهر وعنف وما يعدون له من احتياح لمقاطعة «كوسوفا» التي يسكنها مليونان من اصول البانية (عرضنا لقصبتها يوم الاثنين الماضي)، من شأنه أن يفرض تدخل البانيا المجاورة للدفاع عن أبنائها، وهو ما أعلنه الرئيس الألباني صالح بريشاه، أمام البرلمان الأوروبي بستراسبورج قبل أربعة أسابيع.

معنى ذلك أن المذبحة طالت كل أطروحات النظام الجديد، التسوية السلمية لم تنته، والأمم المتحدة بدت عاجزة، والتطور الديمقراطي خرب وحقوق الإنسان ديست تحت الأقدام والاستقرار والسلام فوضت أركانه (لم تكن هناك أسلحة للدمار السامل ولدا فلم تكن قضيتها مثارة). ذلك كله لم يحدث في أقاصي آسيا ولا في أدمال أفريقيبا، ولكنه حدث في قلب أوروبا، هل بالغنا عندما قلنا أن البوسنة أصبحت شاهداً على أفلاس النظام العالمي الجديد؟